العرب
الأحد 2019/08/04
السنة 42 العدد 11428

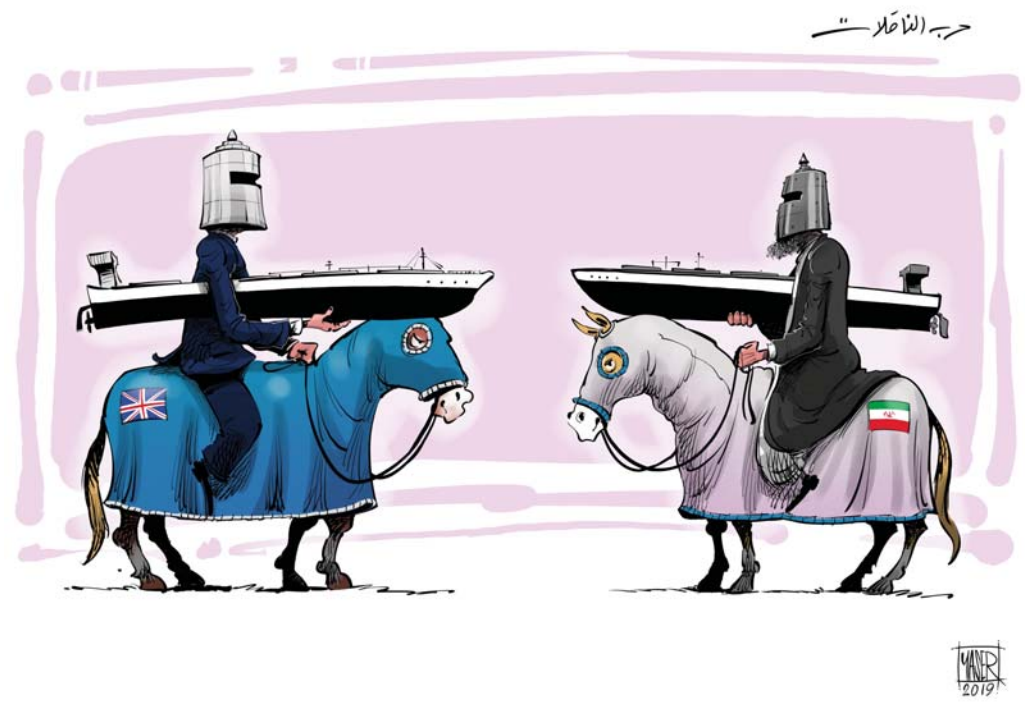

عندما تعالج إيران الفشل بالفشل

خيرالله خيرالله
إعلامي لبناني

مرّة أخرى، تختبئ إيران خلف العناد لتفادي مواجهة الواقع المتمثّل في أنّ العقوبات الأميركية هي الحرب الحقيقية التي تتعرّض لها. أثّرت هذه العقوبات على "الجمهورية الإسلامية" أكثر بكثير من أيّ مواجهة عسكرية. كشفت إلى أيّ حدّ فشلت إيران في بناء اقتصاد متنوّع يمتلك قاعدة ثابتة ولا يعتمد على النفط والغاز. لعلّ الفشل الأوّل للنظام الإيراني الذي قام في العام 1979 فشل اقتصادي وحضاري في الوقت ذاته. عزلت إيران نفسها عن العالم وتحوّلت إلى مصدّر لإثارة الغرائز المذهبية في منطقة تحتاج قبل أيّ شيء إلى الاستقرار وحدّ أدنى من التعقّل وروح التسامح والاعتراف بالآخر...

إيران تعتقد أن لا خلاص لها سوى بمواجهة مع الولايات المتحدة تظهر من خلالها أنّها قادرة على إيذاء القوة العظمى الوحيدة في العالم. مثل هذه المواجهة، في الحسابات الإيرانية، ستؤثّر على دونالد ترامب الساعي إلى ولاية رئاسية ثانية

ليست العقوبات الجديدة التي فرضتها الإدارة الأميركية على وزير الخارجية الإيراني محمد جواد ظريف سوى رسالة أخرى فحواها أن الحرب الأميركية مستمرة ولا ينفع من أجل وقفها أيّ نوع من المناورات الإيرانية، بما في ذلك بهلوانيات ظريف التي لم تعد تنطلي على أحد.

هناك، بكل بساطة، إدارة جدّية تعرف تماما أين نقاط الضعف الإيرانية من جهة ومدى تأثير العقوبات من جهة أخرى. الحرب، حرب عقوبات طويلة، على حد تعبير وزير الخارجية الأميركي مايك بومبيو. هذا لا يعني أنّ لا مكان لمواجهة عسكرية مباشرة أميركية – إيرانية. مثل هذه المواجهة يمكن أن تحصل في أيّ لحظة، لا لشيء سوى أنّ إيران في حاجة إليها اليوم قبل غد. تعتقد إيران أنّ لا خلاص لها سوى بمواجهة مع الولايات المتحدة تظهر من خلالها أنّها قادرة على إيذاء القوة العظمى الوحيدة في العالم. مثل هذه المواجهة، في الحسابات الإيرانية، ستؤثر على دونالد ترامب الساعي إلى ولاية رئاسية ثانية يبدو أن لا شيء يمكن الوقوف في وجهها، أقلّه في المدى المنظور. هناك رهان إيراني على أنّ جرّ إدارة ترامب إلى حرب واسعة أو ميني – حرب، ستكون له نتائج سلبية على المعركة الرئاسية الأميركية التي افتتحها الرئيس الأميركي من فلوريدا قبل نحو شهر ونصف الشهر.

بعيدا عن الحسابات الأميركية والحسابات الإيرانية، يبقى السؤال الذي يطرح نفسه في نهاية المطاف ما الذي تريده إيران من خلال السير في مشروع توسّعي على المستوى الإقليمي؟ كيف يمكن لمثل هذا المشروع خدمة إيران والشعب الإيراني؟

تكمن مشكلة إيران بكلّ بساطة في أنّ ليس لدى النظام فيها ما يصدّره لا للداخل ولا للخارج. لا يستفيد الشعب الإيراني في شيء من عزله عن العالم ومنع الشبان الإيرانيين من اكتساب العلم والمعرفة من خلال الاحتكاك بالثقافة الغربية، الأوروبية أو الأميركية تحديدا. لا يضرّ الشاب الإيراني الذهاب إلى الولايات المتحدة والتخرّج من جامعاتها بدل البقاء في أسر أيديولوجية أقلّ ما يمكن أن توصف به أنّها متحجرة. حسنا، لنفترض أن لدى إيران عقدة أميركا وأوروبا، لماذا لا تستفيد من تجربة بلد لا يبعد كثيرا عنها مثل كوريا الجنوبية التي استطاعت التحول إلى أحد نمور آسيا؟

بغض النظر عن حصول مواجهة عسكرية أو عدم حصول هذه المواجهة، لا خيار آخر أمام إيران سوى التصالح مع نفسها ومع الواقع، لا لشيء سوى لأن كلّ ما تفعله خارج حدودها يصبّ في نهاية المطاف في خدمة الولايات المتحدة التي استفادت إلى أبعد حدود من المشروع التوسّعي الإيراني. هناك دول عدّة في المنطقة كانت تتردّد في الماضي القريب في تقديم تسهيلات عسكرية للولايات المتحدة. باتت هذه الدول تبحث حاليا عن كيفية تعميق تحالفها العسكري مع الولايات المتحدة وغير الولايات المتحدة في ضوء التهديد الإيراني المتواصل للمجتمعات العربية على وجه الخصوص.

أكثر من ذلك، نجحت إيران التي تريد تحرير القدس في جعل القضية الفلسطينية قضيّة شبه منسيّة. لماذا على اللبناني الاهتمام بفلسطين عندما يرى إيران تعمل على تدمير كلّ مؤسسات الدولة اللبنانية بشكل منهجي. يأتي ذلك بعد خطف إيران الطائفة الشيعية في لبنان وتحويلها إلى رهينة لديها. بكلام أوضح، نجحت إيران في تغيير طبيعة المجتمع الشيعي في لبنان إلى حد كبير. الأكيد أن هذا التغيير لم يكن في مصلحة الشيعة ولا في مصلحة لبنان الذي يعاني بسبب ممارسات إيران، عبر "حزب الله" من أزمة اقتصادية عميقة لم يسبق له أن تعرّض لمثيل لها منذ ولادته، كلبنان الكبير في العام 1920.

ليس اللبناني وحده الذي لم يعد مهتما بفلسطين. ماذا عن السوري الذي فقد كلّ أمل في عودة بلاده في يوم من الأيام إلى دولة قابلة للحياة. وحدهم السذّج يعتقدون أن هناك شيئا اسمه النظام السوري وأن هناك مستقبلا مشرقا لسوريا في يوم من الأيام. سوريا التي عرفناها انتهت منذ وقت طويل. كان للدور الإيراني وللميليشيات التابعة لإيران الدور الأكبر في القضاء على سوريا وعلى المدن السورية الكبرى من دمشق، إلى حمص، إلى حماة، إلى حلب.

لنضع سوريا ولبنان جانبا، ما الذي حصل في العراق بعد أن سلمته الولايات المتحدة على صحن من فضّة إلى إيران في العام 2003؟ هل لا يزال في الإمكان الكلام عن دور عراقي ما على الصعيد العربي؟ هل لا تزال هناك علاقة ما بين العراق وفلسطين؟ المعركة الدائرة في العراق الآن واضحة كلّ الوضوح. هل ينتصر المشروع الإيراني الساعي إلى جعل "الحشد الشعبي" يلعب دور "الحرس الثوري" في إيران؟

تُختزل أزمة العراق، التي دخلت مرحلة جديدة بعد الاحتلال الأميركي في العام 2003، بسؤال واحد. ما الذي تريده إيران من العراق؟ كلّ الأسئلة الأخرى مجرّد تفاصيل.

لا حاجة بالطبع إلى طرح أسئلة عن الأدوار السلبية لإيران في اليمن أو في فلسطين نفسها. كلّ ما يمكن قوله إن إسرائيل كانت المستفيد الأول من المشروع التوسّعي الإيراني. استفادت إسرائيل إلى درجة لم يعد فيها سوى متاجرين بالقضيّة الفلسطينية من جماعة "محور الممانعة" الذين لا يهمّهم سوى استكمال الحرب على الشعب السوري خدمة لمشروع يصبّ في تقسيم سوريا وتحويلها مناطق نفوذ تكون إحداها إيرانية.

ستتابع أميركا حربها الاقتصادية على إيران. إنها حرب خاسرة إيرانيا لسبب واحد على الأقل. هذا السبب هو عجز إيران عن التراجع والاعتراف بأنّه لا يمكن الدفاع عن الفشل بأي شكل من الأشكال.

إيذاء الشعب الإيراني

وإيذاء الشعوب العربية الأخرى وتعطيل الملاحة في الخليج ليس سوى الفشل، بل هو الفشل بعينه. كلّ ما يمكن أن تؤدي إليه تصرفات من هذا النوع هو مزيد من الكوارث تحلّ بالمنطقة وأهلها. هل من فشل أكبر من هذا الفشل؟

تحديات تواجه كامب ديفيد الثانية

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

كشفت جولة شرق أوسطية لجاريد كوشنر المستشار السياسي للرئيس الأميركي دونالد ترامب، مؤخرا، عن رغبة حثيثة لدى واشنطن للمضي قدما في عملية السلام بين إسرائيل والفلسطينيين بالطريقة التي ترتضيها. وحاول كوشنر توصيل رسائل طمأنة للقادة العرب الذين التقاهم خلال جولته التي شملت الأردن ومصر والمغرب والسعودية والإمارات، (بالإضافة إلى إسرائيل) زاعما أن "صفقة القرن" تحمل جوانب إيجابية واعدة للشعب الفلسطيني.

وأشارت وسائل إعلام إسرائيلية إلى أن كوشنر حمل معه اقتراحا بعقد قمة للسلام في كامب ديفيد منتصف سبتمبر المقبل، للتأكيد على الرغبة الأميركية في التوصل إلى تسوية سياسية جادة للقضية الفلسطينية، بما يعيد التذكير بالاتفاق التاريخي في 17 سبتمبر 1978 في كامب ديفيد ذاتها، وعلى إثره جرى توقيع اتفاقية سلام بين مصر وإسرائيل في مارس من العام التالي، أنهى ظاهريا الصراع بينهما، وخلّف وراءه تداعيات غيّرت موازين القوى في المنطقة. كما نجح الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر في إدخال تحول مفصلي على الصراع العربي- الإسرائيلي وإخراج القاهرة من معادلته الاستراتيجية المباشرة، يريد ترامب تغيير النمط الإقليمي في التعامل مع القضية الفلسطينية وتصفيتها وإخراجها من رزمة التعامل مع إسرائيل، وبدلا من أن يصبح هذا الملف أداة للتناحر يمكن أن يكون مدخلا للتعاون والتنسيق.

دخلت خطة ترامب، المعروفة بـ"صفقة القرن" في مشكلات قبل أن تولد، وواجهت عثرات، وضرب لإعلانها مواعيد مختلفة، مستندة إلى مقتضيات الأمر الواقع، حيث تتفوق إسرائيل في موازين القوى على الدول العربية.

وغلب عليها الاستعجال ولم تأخذ في الحسبان العراقيل التي يمكن أن تواجهها في المنطقة، وحسب رعاتها يمكن أن يكون الضعف العربي أداة تُجبر الفلسطينيين على القبول بتسوية مبتورة لقضيتهم. ولم يأخذ كوشنر ورفاقه في تقديراتهم أن قوة الشعب الفلسطيني تكمن في ضعفه، وهو ما لعب عليه الرئيس محمود عباس (أبومازن)، واستفاد منه كثيرا في جذب تعاطف واسع في الأراضي الفلسطينية وخارجها غطى أحيانا على أخطائه السياسية.

إذا كانت خطة ترامب استندت على مجموعة من الاعتبارات السياسية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية، فإنها تجاهلت الطبيعة الفلسطينية والعربية التي على استعداد للتضحية بأشياء كثيرة في لحظة معينة وعند حضور الضغط الجماهيري والسياسي الخفي، قبل أن تقبل بالصلف الأميركي والإسرائيلي، وقد تكون حالة الضعف أغرت واشنطن لطرح خطتها تدريجيا، لكن من رحم هذا الضعف ربما تولد قوة.

تجاهل ترامب أن كامب ديفيد الأولى، جاءت عقب انتصار مصر عسكريا على إسرائيل في حرب 6 أكتوبر 1973، وسبقتها ترتيبات مضنية حول فك الاشتباك بين الجانبين، ثم زيارة جريئة للرئيس المصري أنور السادات للكنيست في القدس المحتلة عام 1977، أحدثت صدمة معنوية عنيفة لدى الرأي العام، ومفاوضات في القاهرة أدت إلى ابتعاد ثم عزل مصر عن محيطها العربي، حتى وجد السادات نفسه وحيدا عندما أخفق في وضع الفلسطينيين على طاولة واحدة مع الإسرائيليين في فندق ميناهاوس بالقاهرة. وهذه رواية طويلة بحاجة إلى مناقشة مستفيضة في مقال آخر.

المهم، كانت هناك عملية مرتبة لتهيئة الأجواء سياسيا، ومقدمات مثيرة، وأخذ ورد، ومباحثات ومحادثات ومناقشات جادة، وامتلكت الإدارة الأميركية في ذلك الوقت رغبة وإرادة وعزيمة ليكون الطريق ممهدا لكامب ديفيد، ولم تأت هذه المحطة عشوائية، بل احتلت مكانة في تفكير الدولة الراعية، ولأنها مثلت اختراقا صادما وحقيقيا ونوعيا لقيت ردود أفعال متباينة، وفي النهاية وضعت لبنة أساسية لجذور التسوية والقبول بإسرائيل وفقا لمحددات مرسومة بدقة.

كما أدت إلى فتح الطريق لمن جاؤوا بعد كارتر للحديث بجرأة عن السلام مع إسرائيل، بدءا من مؤتمر مدريد في أكتوبر 1991، حتى صفقة القرن في الوقت الراهن، ومرورا باتفاقيات أوسلو ووادي عربة.

يتفق الكثير من المراقبين على أن كامب ديفيد الأولى محطة مهمة في تاريخ الصراع، وما تلاها من خلافات عربية وفلسطينية جاءت نتيجة طبيعة لتوقيعها، وجنت ثمارها إسرائيل، وتريد الولايات المتحدة عملية سياسية مريحة تفتح المجال لبدء مرحلة تغلق الباب أمام الصراع العربي الإسرائيلي من خلال جملة من الحوافز الاقتصادية والتنموية، تذوب في تفاصيلها القضية الفلسطينية، مستفيدة من تصاعد الانقسام بين أطرافها الرئيسية الداخلية، وانهماك دول عربية كثيرة في مشكلات إقليمية ممتدة، قد يكون الانخراط في التعاون مع إسرائيل إحدى وسائل حل البعض من ألغازها.

جولة كوشنر حملت رغبة أميركية بشأن ممارسة ضغوط على السلطة الفلسطينية لإقناع الرئيس أبومازن بالذهاب إلى كامب ديفيد

لذلك تجاهل الطرح الجديد منذ البداية الجانب الفلسطيني، ولم يبذل القائمون عليه جهدا كبيرا لجذب السلطة الوطنية إليه، وربما وجدوا فرصة في تحدي الرئيس محمود عباس للتحركات الأميركية على أمل أن يتم تقويض سلطته عبر تكريس الصراع المحتدم مع حركة حماس المسيطرة على قطاع غزة، وإيجاد المبررات لتمرير خطوات مؤثرة، مثل الاعتراف بالقدس عاصمة لإسرائيل ونقل السفارة الأميركية إليها، والتي يمكن الاعتماد عليها لتقديم حلول مبتورة مع الغياب المادي لرأس السلطة الفلسطينية الذي خالف التوقعات وتخلى عن براغماتيته السياسية هذه المرة.

وجدت واشنطن مصدات كثيرة في الطريق، ولم تتلق الاستجابة العربية المتوقعة، وافتقدت للتأييد الذي يمنحها الحشد السياسي اللازم، وكأن كل دولة لا تريد تحمل مسؤولية الحديث نيابة عن الفلسطينيين أو المشاركة في ترتيبات على حسابهم، ووجد البعض في غيابهم عن مباحثات "صفقة القرن" بشقها الاقتصادي في ورشة المنامة مدخلا لتخفيف الانخراط في خطواتها التالية، فإذا كان أصحاب القضية غير راغبين فيها، فلن يستطيع أحد فرض شروطه عليهم، وبدا كأن هناك ارتياحا للغياب الفلسطيني، تحوّل إلى قاعدة يتكئ عليها بعض القادة العرب لتفسير ممانعاتهم للصفقة.

حملت جولة كوشنر رغبة أميركية عارمة بشأن ممارسة ضغوط على السلطة الفلسطينية لإقناع الرئيس أبومازن بالذهاب إلى كامب ديفيد، وهو ما جعل مصر تشدد على أهمية التسوية على أساس حل الدولتين والالتزام بدولة فلسطينية وعاصمتها القدس الشرقية. وجاءت غالبية الردود العربية في الاتجاه ذاته.

واشنطن مصممة على وضع العربة أمام الحصان في جميع الخطوات التي قامت بها حيال "صفقة القرن" ما أجهضها مبكرا، وما لم تضبط الحركة السياسية عامة، وتضع الحصان في المقدمة ستتوالى الإخفاقات التي تلازم صفقة لم تفلح في إغراء الفلسطينيين على دخولها بقاعدة "خذ وطالب".

وتلعب بعض الدول العربية على استنزاف الوقت لإفشالها عمليا، ولا ترى ضرورة في مواجهتها علانية لتجنب الدخول في صدام مع الإدارة الأميركية في وقت تتقاطع فيه مع بعض القضايا الإقليمية الحيوية.

يدخل ترامب سباق انتخابات الرئاسة بعد بضعة أشهر، ويستعد بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل لانتخابات الكنيست في سبتمبر المقبل، وينشغل كلاهما في همومه، ولن يجدا الوقت الكافي لمناقشة تفاصيل صفقة القرن باستفاضة على الطاولة، من هنا سينحصر هدف القمة المنتظرة في كامب ديفيد في جانبها الدعائي، والإيحاء أن ترامب لم يفشل والعملية السياسية مستمرة، والترويج إلى أن هناك أفقا لحل القضية بالطريقة المريحة لإسرائيل، ونسف للأمل في تكوين دولة فلسطينية. تلك رسالة تريدها واشنطن من وراء عقد أي قمة لها علاقة بالفلسطينيين، يستفيد منها ترامب ونتنياهو، وتتزايد الشقوق في الأوساط العربية كي تنتهي الثوابت التي تقوم عليها القضية الفلسطينية، كهدف استراتيجي تسعى إليه واشنطن لتدشين المرحلة الجديدة في المنطقة الخالية من الرموز المركزية القديمة، بما يساهم في الخروج بحلول في قضايا أخرى لا تلتزم بالقواعد التاريخية.

ولم تعد الظروف مهيأة لتقسيمات نمطية على طريقة سايكس بيكو، لكن تذويب وإخفاء الملفات الجوهرية يصلح ليكون مقدمة لاتفاقيات منقوصة، على غرار ما تحمله "صفقة القرن" من مكونات لا علاقة لها بما سبق من مساومات وصفقات. وهو تحد كبير أمام الدول العربية، حتى لا تصبح كامب ديفيد الثانية نواة لتغيير وجه المنطقة بطريقة تصب فقط في صالح إسرائيل، وتنهي الحديث مستقبلا عن الحقوق القانونية للشعب الفلسطيني.